قراءة ومراجعات

قراءة في كتاب الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان*

للدكتور عبد الوهاب المسيري**

صالح محمد نصيرات***

مقدمة

يحتوي الكتاب على مقدمة قصيرة وثمانية فصول، جاءت عناوينها كما يأتي: الإنسان والمادة، إشكالية الطبيعي والإنساني، العقل والمادة، المادية في التاريخ، الترشيد والقفص الحديدي، نهاية التاريخ، العنصري الغربية في عصر ما بعد الحداثة، المادية والإبادة.

وقد استهدف المؤلف في هذا الكتاب محاولة فتح باب الاجتهاد بخصوص دراسة ناقدة للفلسفة المادية الكامنة خلف العديد من الفلسفات الحديثة، التي شكلت رؤية العالم المعاصر للتاريخ والتقديم والعلاقات الدولية، بل وشكلت أيضاً رؤيتنا لنفسنا لأن هذه الرؤية هيمنت على النخب الثقافية والفكرية في مجتمعاتنا. ويستخدم المؤلف في هذا الكتاب –شأنه في هذا شأن كتبه في الآونة الأخيرة– النموذج المعرفي أداة تحليلية.

تبقى قضية الإنسان محور الاهتمام لكثير من الفلسفات الروحية والمادية. فالإنسان هذا المخلوق العجيب استحوذ على اهتمام الفلاسفة والمفكرين منذ بدايات الفكر الإنساني. فضلاً عن أن الإنسان كان الهدف الأساس من الرسالات السماوية. وهذا الإنسان بالتركيبة العجيبة المتمثلة في الجمع بين المادية والروحانية سيبقى كذلك محط اهتمام العقلاء والمفكرين والفلاسفة. والسبب واضح جداً، فالإنسان محور هذا الوجود وهو في ذات الوقت المخلوق الذي سخرت له السماوات والأرض وسجد لكرامته الملائكة.

---

* المسيري، عبد الوهاب. الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دمشق: دار الفكر، 240، 2002 ص.

** أستاذ سابق للأدب الإنجليزي والمقارن بجامعة عين شمس والملك سعود والكويت، مفكر مصري وخبير في الدراسات الصهيونية.

*** دكتوراه في التربية (مناهج وطرق تدريس اللغات الأجنبية) من معهد فرجينيا للتنقية سنة 1999. مدير أكاديمية واشنطن الإسلامية.

هذا المخلوق الكريم المعقد التركيب اختزل في المادية الحديثة والقديمة على السواء إلى مجرد مكون مادي من دم ولحم: أي مواد عضوية وكيماوية ليس أكثر. فهو لا يختلف عن أي مخلوق آخر في هذا الكون من طبيعة مادية أو مخلوقات حيوية.

والكتاب الذي بين أيدينا يتناول الفلسفات المادية المشار إليها آنفاً بالنقد والتحليل. وهو كتاب سيجد بعض القراء صعوبة كبيرة في إدراك الكثير من العلاقات والنتائج التي يتوصل إليها. فالكتاب من الناحية الموضوعية يتناول موضوعاً بحث كثيراً في الأدبيات الإسلامية المعاصرة. حيث إن نقد الفكر الفلسفي الغربي لم يتوقف. كما أن ربط الاستعمار الحديث والقديم بالفلسفة العلمانية ليس جديداً. ولكن الجديد كثير في هذا الكتاب. فالكتاب لا يطرح العالم الغربي مقابل العالم الإسلامي، أو الفلسفة الغربية مقابل الإسلام. ولا يتناول الغرب من المنظور الإسلامي الذي درج عليه الكثير من المؤلفين الإسلاميين الذين يتناولون الغرب لا لشيء إلا لإظهار تقدم المسلمين عليه وتفوق القيم الإسلامية. ولعل هذا المنهج كان له ما يبرره. أما الكتاب الذي بين أيدينا فيتناول العلمانية من خلال رؤية فلسفية شاملة تربط تاريخ الفلسفة الغربية التنظيري بالمآسي التي جرتها هذه الفلسفة ليس على العرب والمسلمين وحدهم بل على فكرة الإنسان، حيث جردته من قيمته الحقيقية وحولته إلى أداة توظف لصالح إما مجتمعات عنصرية أو شركات استهلاكية قائمة على الربح.

إن قيمة هذا الكتاب تكمن في عدة أمور منها:

- رده الفظائع الغربية والتجريد الغربي للإنسان إلى رؤية فلسفية شمولية واحدية لا ترى مرجعية في غير ذاتها،
- عدم السقوط في فخ المقارنات التقليدية بين الأنظمة والفلسفات الغربية من جهة وبين الإسلام من جهة أخرى،
- ربط الفلسفة بالواقع المعاش والمحسوس، فالفلسفة الغربية ليست –كما يتوهم البعض– نقاشات تدور في مقاه أو أندية، بل هي ممارسات يومية.

• إعطاء القارئ أداة لتفسير الكثير من الوقائع المعاشة. ولعل الأحداث الأخيرة في العالم خصوصاً أحداث سبتمبر يمكن تفسيرها من خلال الصراع بين الوحشي الاستعماري المتلهف للسيطرة على العالم والفئات الغاضبة في العالم الإسلامي.

وقد يجد بعض القراء بعض التكرار في الكتاب. حيث ترافق القارئ فكرة النازية والصهيونية والعلاقة بين الإنساني والطبيعي معظم الكتاب. وهو في ظني أمر طبيعي لأن الموضوع كثيف والتكرار أمر طبيعي للتذكير المستمر بفكرة الكتاب.

يناول المؤلف في الفصل الأول العلاقة بين الإنسان والمادة من خلال التصورات الفلسفية القديمة والحديثة. فالإنسان في التصور السليم –وهو التصور الإسلامي– مخلوق مكرم فيه الطبيعة المادية التي تجعله يشارك المخلوقات الأخرى في هذا الكون خضوعه للقوانين الطبيعية والحتميات التي تسري على كل المخلوقات من حيث وجود بداية له ونهاية.

أما الجانب الذي يتجاوز فيه الإنسان بقية الكائنات الأخرى وهو الجانب الروحي فإنه يجعل هذا المخلوق متميزاً على غيره بما أنعم الخالق سبحانه وتعالى عليه من نعمة العقل والروح. فالروح التي نفخت فيه هي من روح الله سبحانه وتعالى، والعقل الذي يمتلكه جاوز به المخلوقات الأخرى. فهو كائن حر الإرادة مفكر ودائب النظر والبحث لا يبقى على حال خاضعاً للتأثيرات الطبيعية. فهو عنصر فاعل في هذا الكون ولا يرضى أن يعيش ريشة في مهب الريح. هكذا خلق وهكذا سيعيش حياته.

فالفلسفات المادية لم تتجاوز في نظرتها للإنسان ما تراه من مخلوق يعيش على هذه الأرض يسعى ويكدح ليحقق ذاته من خلال الأعمال التي يقوم بها. فالإنسان مخلوق براني، أي أن الفلسفة المادية لم تعن بالجانب الجواني للإنسان ولم تلق بالاً لنوازع هذا الإنسان ومشاعره وخصوصيته، بل العكس هو الصحيح. فهو جزء من العالم المادي المنظور.

ففي استقراء المؤلف لتلك الفلسفات يجد أنها أغفلت أن هذا الإنسان لم يكن جزءً من هذه الطبيعة. فهو مخلوق متميز عنها وعليها. وهو منفصل عنها ذاتاً وموضوعاً. وهو متميز عليها بالملكات والخصائص التي أنعم الخالق سبحانه وتعالى بها عليه.

هذه الخصوصية ترفضها الفلسفات الوضعية والمادية. وهذا الجحود والنكران لطبيعة الإنسان ما هو إلا غطاء لإنكار طبيعة العلاقة بين هذا المخلوق والقوة الربانية. فالإيمان بتميز الإنسان وتفرده يعني بالضرورة الإيمان بأن الإنسان مخلوق متميز وهو ما أكدته الديانات السماوية.

والمادية هي التي أنتجت العقلانية المادية التي تنكر الوحي والإلهام ولا تؤمن إلا بالمادة والمناهج المادية سبيلا إلى المعرفة. هذه المادية –كما يرى المؤلف– هي التي أنتجت نوعين من المناهج: العقلانية المادية واللاعقلانية المادية. فالنظام النازي نظام مادي ولكنه لا عقلاني، عكس النظام المادي الأمريكي الذي يعتبره المؤلف مادياً لكنه عقلاني.

في الفصل الثاني يتناول المؤلف قضية ذات أهمية بالغة وهي قضية اكتسبت اهتماماً كبيراً لدى الباحثين، بل يمكن القول بأن قضية العلم اليوم هي هذه العلاقة بين الطبيعي والإنساني. ولما كانت العلاقة بين الظاهرتين الإنسانية والطبيعية واضحة للعيان ولا يمكن إنكارها، فلابد من دراسة تلك العلاقة للتأكد من مدى صدق أو مقاربة الفلاسفة الماديين للعلاقة بين هاتين الظاهرتين. فالظاهرة الطبيعية في نظر الماديين ظاهرة شاملة ولا يستثنى منها الإنسان. فالإنسان –في النظرة المادية– جزء من الظاهرة الطبيعة غير منفصل عنها ولا متجاوز لها. ولما كان الأمر كذلك، فإن القوانين الطبيعة تسري على الإنسان سريانها على الشجر والحجر والحيوان لا فرق. وهو أمر يثير السخرية.

والإنسان المخلوق المكرم في نظر المنهج الرباني، يختلف اختلافاً بيناً "ولكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور". فعمى القلوب وبعدها عن الخالق سبحانه، جعلت الماديين لا يميزون حتى وهم ينزلون العقل منزلة الرب، بين الإنسان والطبيعة الصماء ذلك أن كبرياءهم تمنعهم من الإيمان بالخالق سبحانه، لذا فهم يرتكسون في حمأة الطين وينزلون بالإنسان إلى منزلة العجماوات بل أحط من ذلك فالماديون ينزلون بالإنسان منزلة الحجر.

أما الإرادة وحرية الاختيار فهي فرق حاسم بين مادة تخضع خضوعاً كاملاً للقوانين الحتمية، وبين إنسان متميز عليها بإرادة حرة تجعله يختار ما يشاء من الأفعال ويترك ما يراه غير مناسب له.

ويعرض المؤلف لقضية الإنساني والطبيعي في الفكر العربي الماركسي الحديث. ففي هذا الفكر، نجد أن قضية الإنسان الأساسية هي العلاقة بين الإنسان والطبيعة هي علاقة تبادلية تفترض المساواة في نهاية المطاف بين الإنسان والمادة. يقول د. فؤاد مرسي "الاقتصاد هو مجال رئيسي للعلاقة بين الطبيعة والمجتمع، فبعد أن "ابتعد" الإنسان عن الحيوان، وهو ما يعني ابتعاده عن الطبيعة وتفوقه عليها، فإنه يعود فيدخل في علاقة تبادلية تفترض المساواة الكاملة" ويستمر مرسي ليصل إلى مبتغاه "لهذا أصبح العلم كله طبيعياً واجتماعياً علماً ذا طابع اجتماعي" ص47. هذه العلاقة التي تبدو ثنائية يرفضها الماديون لأن القضية الأساسية عندهم هي التوحد بين عناصر الطبيعة كلها. والإنسان والمجتمع ليسا سوى جانب من جوانب الطبيعة.

ويشير المؤلف إلى عدد من الكتاب العرب كحامد عمار وحسن الساعاتي نقداً لاذعاً للماديين ولنظرتهم التجريبية التي يراد منها استخدام الإنسان ساحة للتجريب من خلال القوانين المادية البحتة. فالإنسان في المنهج التجريبي ليس سوى رقم يتعامل معه الباحثون. هذه الرقم يجب –في نظر الماديين– أن يخضع للحتميات التي يرونها مناسبة في موقف ما.

ويبين المؤلف أن كثيراً من الباحثين من علماء وفلاسفة يرون أن الرؤية التجريبية تافهة لإصرارها على الحقائق الصلبة والسببية المطلقة والتي ذهبت إلى أن قوانين التاريخ والمجتمع الإنسانيين تشبه قوانين الطبيعة. ويرى أن التركيز على الإنسان يجب أن يتوجه إلى دراسة الداخل "الجوّاني" للإنسان والذي يمثل المشاعر والأحاسيس والعواطف وهي الأمور التي تجعل هذا المخلوق مميزاً على الطبيعة الجامدة. كما أن النموذج المادي في تفسير الظاهرة الإنسانية قد فشل فشلاً ذريعاً، ذلك لأن عقل الإنسان يتحدى التفسيرات المادية. وقد بين بعض العلماء مثل تشومسكي العالم اللغوي والفيلسوف المعروف أن اللغة الإنسانية ليست –كما ذهب السلوكيون– عادات يكتسبها الطفل من البيئة، بل هناك قدرة كامنة قادرة على التوليد سماها القدرة التوليدية. كما أن الاكتشافات العلمية أثبتت أن العقل الإنساني ليس صفحة بيضاء كما يتوهم الماديون، لتقوم الطبيعة –البيئة– بنقش ما تريد. فضلاً عن أن الأحاسيس والمشاعر الدينية لا يمكن تفسيرها تفسيراً مادياً بحتاً. ويتساءل المؤلف الكيفية التي تحدد صورة تفكير ما. وعلاقة المؤثر المادي بالاستجابة الفكرية والعاطفية. ونظراً لأن الإنسان يدرك الأشياء والواقع كجزئيات تنضوي تحت كلٍ متكامل، فإن الماديين في عصر ما بعد الحداثة أنكروا فكرة الكل وأعلن نيتشه موت الإله "كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً."

أما الطبيعة البشرية فهي محل هجوم مستمر للماديين. فالإنسان غير مستقل عن المادة ولا يستطيع تجاوزها، فهو باختصار أسير لهذه المادة. ولذلك فإن تفكيك الإنسان وإعادته إلى عناصره الأولية الأولى هو التفسير الوحيد المتوفر لدى الماديين.

ومن أمثلة الهجوم على الطبيعة البشرية ما يسميه المؤلف وحدة العلوم. أي أن جميع العلوم تتخذ من المادة والطبيعة مرجعاً، وحتى العلوم التي تبحث في الإنسان وقضيته، نجد أنها ذات ارتباط مادي. ومن هنا فإن العلوم واحدة. أي أن ما يسري على الطبيعة يسري على الإنسان. ومن هنا يستطيع الباحث أن يدرك سر ربط العلوم الإنسانية من حيث الدراسة والبحث بالعلوم الطبيعية واتخاذ النموذج العلمي الطبيعي الأساس في البحث في القضايا التي تهم الإنسان. وهنا لا بد أن نشير إلى النقد الكبير الموجه إلى الفلسفة الوضعية التي حولت دراسة الإنسان من دراسة موضوعية خالصة إلى مجرد أرقام.

أضف إلى ذلك أن العلوم المسماة إنسانية تبحث عن تاريخ الإنسان لا عن طبيعته. والأخطر من ذلك أن الإنسان لم يكن إنساناً قبل أن تشكله الطبيعة والعلاقات الاجتماعية التي مردها ومرجعيتها الحاجات المادية: علاقة الإنتاج ليس أكثر.

ويستطرد المؤلف في الحديث عن النموذج التفكيكي الذي يدعو إلى طرد الإنسان من حالة الثبات إلى حالة من التغيير المستمر. فالحالة الإنسانية ليست مستقرة ولا ثابتة. كما يشير فوكو.

أما الموضوع الآخر في الهجوم فهو حركة الحقوق الجديدة والتي تتمحور حول المرأة. وهذه الوضع الجديد جعل لكل موضوعٍ حركة تحرر. فللفقراء والشواذ والسود والبيض والنساء والمعوقين وحتى الكلاب حركات تحرر. بل الأسوأ من ذلك أن توجد حركات تحرر تدافع عن كل ما هو غير طبيعي وذلك ليكون الإنسان حالاً في الكون لا منفصلاً عنه. أي أن التفسير المقبول لانتشار المذاهب والتقاليع الدينية الجديدة ليس مرده سوى انتشار المادية الحلولية التي لا ترى في الإنسان سوى مظهر من مظاهر الكون المادي.

في الفصل الثالث يناقش المؤلف نظرة النظريات الفلسفية إلى العقل. فالداروينية ترى أن العقل قد ظهر من خلال عملية تطور كامنة في المادة ذاتها والماركسية ترى أن العقل ظهر من خلال علاقة إنسانية بالطبيعة وببقية البشر.

أما دوركهايم فيرى أن العقل من الجماعة بمثابة الضمير من الفرد والعقل الجمعي صورة اجتماعية مركبة. وترى الفلسفات المثالية أن العقل قوة تدرس المبادئ العامة المادية وغير المادية. فكأنه شيء مستقل عن الإنسان وهكذا. ويقدم المؤلف رؤيته الموجزة فيقول إن العقل الإنساني شأنه شأن الظاهرة الإنسانية مادي في بعض جوانبه متجاوز للمادة في جوانب أخرى وهو ليس عقلاً مادياً ولا مثالياً وإنما هو عقل إنساني يعيش ثنائية الجسد والروح.

ثم يشير إلى إسهامات مفكري مدرسة فرانكفورت وتميزهم بين العقل الأدائي وجذوره في الفكر الإغريقي القديم، والعقل النقدي الذي طورته جهود فكر الاستنارة وأعطى للعقل مفهوماً ذا بعد إنساني وميتافيزيقي متجاوز للمادة. لكن وحدة الأساس يتمثل في قدرته على التفكيك لكنهم رؤيتهم للواقع الاجتماعي وتطوره تنطلق من الفلسفة الليبرالية التي تترك مصيره إلى آليات السوق والاقتصاد مع غياب للغائية الإنسانية. وينتهي التحليل الفلسفي للمؤلف إلى أن الليبرالية والفاشية كلاهما كامن في فكر حركة الاستنارة.

في الفصل الرابع: المادية في التاريخ، يتناول المؤلف بالحديث التفصيلي الفكرة الداروينية والدور التخريبي لهذه الفكرة. ويرى المؤلف أن هذه الفكرة هي أساس العلمانية الشاملة. فقد طرحت هذه النظرية ولأول مرة وبطريقة بعيدة عن العلمية والموضوعية قضية خطيرة جداً، تحول فيها الإنسان المخلوق المكرم إلى مجرد حيوان ارتقى في سلم التطور صعداً حتى وصل إلى هذه الكيفية التي هو عليها. وهو مناقض تماماً للفكرة الإسلامية التي تنطلق أساساً من الخلق المباشر.

فالداروينية هي -كما يقول المؤلف- "النموذج المعرفي الكامن وراء العلمانية الشاملة" ص97. فالقوانين الطبيعية لا تنطبق على المظاهر المادية فقط، بل تسري على الإنسان وكل موجود في هذا الكون. فالعالم في نظر هذه النظرية في حركة دائمة ومستمرة ترتقي من أسفل إلى الأعلى.

هذه النظرية وما تفرع عنها من أفكار الانتخاب الطبيعي والصراع من أجل البقاء أو البقاء للأصلح، هذه الأصول والفروع أدت إلى تحويل القيم الإنسانية إلى مجرد قيم نفعية مادية.

ويرى المؤلف أن أصحاب النظريات العرقية رأوا في هذه النظرية ملاذاً لهم. حيث اتخذوها تكئة لهم في عملية التدمير الشامل التي قاموا بها ضد الإنسان. فالنازيون رأوا في هذه النظرية دعماً علمياً لآرائهم في وجوب التخلص من

الأفراد الذي لا يقدمون إنتاجاً مباشراً للمجتمع أو يكونون سبباً في إعاقة تقدمه. ولذلك لم يتورع النازيون من خلال نظرتهم الاستعلائية العرقية عن أن يقتلوا المعوقين والغجر ومن ثم اليهود ليصلوا إلى مجتمع نقي. أما الصهاينة فلم يجدوا باساً في استخدام النظرية على الطريقة النازية. فتحول الضحية إلى جلاد، ولذلك فلم يتورعوا عن نزع شعب بأكمله من أرضه وتحويله إلى لاجئ.

وفي معرض حديثه عن الأثر الفتاك لنظرية التطور يتحدث المؤلف بالتفصيل ويربط بين الفلسفة هذه والوقائع التاريخية وتلك المعاشة.

وقد تحدث المؤلف عن اللحظة العلمانية ورأى أنها تمثلت في نماذج ثلاث: الإبادة ممثلة بالنازية والصهيونية، اللحظة السنغافورية، وفيها يتحول إلى الإنسان إلى وحدة إنتاجية استهلاكية، واللحظة الجسمانية وهي اللحظة التايلندية، حيث يتحول المجتمع بأسره إلى مصدر لتزويد أصحاب المتعة الحرام بحاجياتهم. حيث يدور الإنتاج وحتى حركة المجتمع حول هذه اللحظة.

ولعل من أخطر ما تركته هذه الفلسفة وهو أمر لم يشر إليه المؤلف، ذلك الأثر البعيد الذي تركه داروين على أبي التربية الأمريكية الحديثة– ديوي. حيث يعتقد الكثير من الباحثين في التربية الأمريكية أن ديوي مسؤول بشكل مباشر عن بعث الفكر الداروينى وتحويله إلى فلسفة تربوية يستند التعليم الأمريكي الحديث إلى أصولها.*

ولا غرابة أن نجد أن أكثر المشتغلين بالتعليم في أمريكا لا يطيقون حديثاً يعترض على نظرية داروين. حيث إنهم ينافحون عنها باستمرار.

---

* أنظر مثلا

- Honderich, Ted (editor). Oxford Companion to Philosophy, Oxford, UK & New York: Oxford University Press, 1995, p.197
- Bowen, James and Hobson, Peter. Theories of Education: Studies of Significant Innovation in Western Educational Thought, 2nd ed., New York: John Wiley & Sons, 1981, pp. 132–139

وأكثر ما يلفت النظر في هذه النظرية –في رأي المؤلف– هو قدرة المريدين على تحويلها من الحالة التدميرية التي هي عليها وتجميلها بطريقة مثيرة حقاً. فالصهاينة المحتلون ادعوا أنهم جاءوا إلى أرض بور لزراعتها وإحيائها، والنازيون بقتلهم المعوقين وغير المنتجين إنما ينظفون المجتمع. والجنس والدعارة ليستا سوى مصدر للدخل القومي.

في الفصل الخامس "الترشيد والقفص الحديدي" يستعرض المؤلف تعريفات للترشيد، فمن ناحية، فهو توظيف الوسائل بطريقة فاعلة ومن ناحية أخرى فهو التبرير. أما المعنى الآخر فيتعلق برفض الغيبي والاستعاضة عن التفسير الغيبي بالتفسير المادي للأشياء. ويتوسع المؤلف في الحديث عن الترشيد وعلاقته بالعلمنة. حيث يصل الأمر إلى وضع الإنسان ذاته مرجعية له. فليس خارج هذا الإنسان من تصور للوجود. والمجتمع يصاغ وفقاً لحسابات الربح والخسارة. ففي التحليل النهائي نجد الإنسان يعيش داخل هذا القفص الحديدي الذي تحبسه عن التطلع خارج ذاته. ويتناول الكاتب دور الأدب الحداثي عند كل من بيكيت وكافكا حيث يدور الأفراد في حلقات مفرغة دون وصول إلى نهاية معروفة. أما علمنة البيئة الاجتماعية فإنها تتطلب وجود مركز قوي يقوم بالهيمنة على الأطراف وبعملية تحكم بالموارد وتوجيهها لتوظيفها على أكمل وجه. وفي عالم السياسة نجد أن الدولة المركزية هي التي تقوم بعملية الترشيد هذه، لما يتطلبه الأمر من قوة وفعالية وأمر نافذ. كما أن الدولة المركزية قامت بربط الأطرف أي المدن البعيدة بالمركز وهو العاصمة لضمان سيطرة مطلقة على المجتمع.

أما علمنة الإنسان فتتم من خلال عملية إعادة صياغة الإنسان، وبالتالي المجتمع على هدي من القوانين العلمية المادية الصارمة. ولأن الصياغة لا تتم إلا من خلال وجدان جمعي يتمكن من خلاله الأفراد التعبير عن ذواتهم، فلابد من أن تقوم الدولة بخلق نموذج يناسب هذا الوجدان. ولعل الفكرة النازية التي قامت أساساً على تفضيل العرق الآري على غيره، قد استطاعت تجميع الكثيرين وفق هذا التصور. ولا تبتعد الفكرة الصهيونية عن هذا. فقيام دولة اليهود في فلسطين قد تم من خلال عملية بعث الأساطير التي تؤسس للكيان، وتجمع اليهود من خلال تراث أسطوري يوحد ما يتوهمونه آمالاً.

ويشير المؤلف إلى قضية مهمة وهي أن الدولة في سعيها لضمان ولاء الأفراد، قامت بالقضاء على كل ما يقف حجر عثرة في سبيل الولاء لها. فقضت على دور الكنسية والأسرة اللتان تشكلان عناصر يتقاسم الأفراد الولاء لها.

فالإنسان في نهاية المطاف مواطن بالدرجة الأولى، أما خصوصياته الدينية والعرقية، فمكانها المنزل أو مكان العبادة فقط.

وقد رصد المؤلف عدداً من السمات لشخصية الإنسان الرشيد، ولعل منها التقلب السريع دون تفكير كبير. فهو يتقلب مع الجو المناسب، ولا يحتاج أصحاب الماركات أو السلع الجديدة وقتاً طويلاً لإقناعه بالجديد والمثير، ومنها أيضاً أنه إنسان بلا مرجعية فهو يتقلب من ذات إلى موضوع. ومنها أيضاً التحمس لأمور مجردة يظن أنها ستكون سبباً في سعادته وتقدمه. فهو أيضاً يصدق كل ما يقال ويشاع، وهو بأمر النظام متى شاء وظَّفه لصالحه، وهو باختصار إنسان مبرمج مثل الدمية التي تعبأ لتقوم بأداء وظيفتها وهو كما يقول المؤلف إنسان بلا لون ولا طعم ولا رائحة مميزة.

في الفصل السادس يتناول المؤلف مقولة نهاية التاريخ التي بشر بها الأمريكي الياباني الأصل فوكوياما. هذه النظرية التي يتناولها المؤلف من خلال طرح عدد من الأسئلة قد لا تبدو للقارئ العادي ذات علاقة. فهو يتساءل عن العلاقة بين الحل النازي للمسالة اليهودية والصهيونية من جهة والشركات العابرة القارات من جهة أخرى، بمعنى آخر ما العلاقة بين القطبية أو الكونية ومجريات الأحداث العالمية؟ الجامع بينها هو محاولة إلغاء الزمان والتاريخ وتصفية التركيب كما يقول المؤلف.

فكما أن النازيين أرادوا حل المسالة اليهودية بالإبادة أي بإلغاء التاريخ، يقوم الصهاينة أنفسهم بنفس العمل من خلال محاولاتهم الدؤوبة لإلغاء تاريخ شعب بأكمله، بل إلغاء تاريخ أمة بأكملها من خلال الإصرار على أن القدس عاصمة أبدية لليهود. ونهاية التاريخ تعني أن العالم التاريخ "بكل ما يحويه من تركيب وبساطة وصيرورة وثبات وشوق وإحباط ونبل... سيصل في لحظة ما إلى نهايته خالياً من التدافع والصراعات والثنائيات." فهو عالم واحد لا مجال فيه للآخر. والتصور هذا يصدر عن قناعة مطلقة بالحتميات التاريخية. والتي لم يتعظ من سقوط الشيوعية صاحب الفكرة وفيلسوفها.

فالحتمية الشيوعية مثلاً كانت إحدى المطلقات والحتميات على مدار عقود، ثم ما لبثت أن أصبحت أثراً بعد حين. ويربط المؤلف بين مقولة التاريخ لفوكوياما وأطروحة هنتنغتون في صراع الحضارات. فالأول حاول أن يلغي الحركة من خلال التوقف عند الليبرالية الغربية كمرحلة نهائية للحياة البشرية حيث تتم من خلالها عملية بناء الفردوس

الأرضي، أما الثاني فإنه على عكس الأول، وجد أن الصراع بين الحضارات أو الثقافات الغربية من جهة والإسلامية والكنفوشوسية من جهة أخرى أمر حتمي.

ويربط المؤلف بين هذه الرؤى العلمانية التي قد تبدو متناقضة ولكنها في نهاية المطاف واحدة وبين الواقع الإمبريالي الذي يتجه نحو تحويل العالم إلى مصنع وسوق وملهى ليلي. فالإنسان يعمل في أول النهار، مستهلك في وسطه لاه عابث في نهايته. فهو ينتقل من دائرة إلى أخرى لتحقيق أمر واحد هو تطلعاته وأشواقه المادية. وإذا نظرنا إلى هذه التوليفة لوجدنا أن المسجد أو المعبد لا وجود له في حياة الإنسان الذي تريده هذه الفلسفة العلمانية.

أما تحقيق ذلك فلا يتم إلا من خلال السيطرة على النخب السياسية والثقافية في العالم الثالث لأنها وحدها القادرة على تزيين هذا الباطل لشعوبها وجرها خلف الاستعمار الحديث. ويضرب على ذلك مثال الكاتب الجامايكي الهندي الأصلي الذي يرى في النموذج الغربي الحل الوحيد للعالم المتخلف وكذلك لرئيس المكسيك الذي يريد إلحاق أمته بالشمال الأمريكي ليصبح عالماً آخر.

في الفصل السابع: العنصرية الغربية في عصر ما بعد الحداثة يتحدث المؤلف طويلاً عن تاريخ نشوء النظريات العنصرية في الغرب والتي تربط بين الجنس الأبيض كعنصر متفوق يحمل في خباياه جينات التطور والتحديث، وعالم آخر مبتلى بجينات التقدم.

وهذه الرؤية العنصرية عودة —بطريقة مختلفة– إلى تصنيف العالم إلى عالمين: واحد متقدم وحداثي وآخر متخلف ورجعي. ولأن الغرب يعيش حالة الانتصار في عالم التقنية والتحديث فإن له الحق أن يصبح هو المرجعية في كل شيء. إذن المرجعية مرتبطة بالقوة العضلية لا بالقوة الروحية أو الفكرية، فهذه لا وجود لها.

في الفصل الثامن والأخير يتناول المؤلف فلسفة الإبادة المستندة إلى رؤية مادية صرفة لا علاقة لها بأية قيم إنسانية أو أخلاقية. فالإنسان الذي تم "إنتاجه" أي تربيته بطريقة عنصرية بحيث لا يرى غيره من يستحق الحياة ويبرمج على أساس أنه العرق الأصل وأن الآخرين ليسوا أكثر من خدم جاءت بهم الطبيعة لتحقيق مآربه، هذا الإنسان تعامل مع هذا الآخر بطريقة ليس لها سابقة في التاريخ البشري.

فالإبادة المنظمة انطلقت من أوروبا عبر تهجير المجرمين إلى بلاد خالية "من السكان" ومن ثم ذبح هؤلاء السكان الأصليين كما حدث في أمريكا الشمالية واستراليا على وجه الخصوص. ومن ثم تهجير الآخرين ليكونوا أداة العمل لصالح المهاجرين الجدد كما حدث في حالة تهجير العبيد من أفريقيا إلى أمريكا الشمالية. هذه الهجرات القسرية المبكرة لم تنقطع عبر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بل استمرت إلى القرن العشرين.

وقد تم تهجير ملايين التتر من جزيرة القرم إلى سيبيريا في العهد الستاليني وتم ذبح كل من يتردد في ذلك حيث وصلت أعداد المقتولين أو المبادين عشرات الملايين. وقد رافق عملية التهجير عمليات"تطهير عرقي" في ألمانيا النازية. فالنازيون كغيرهم من الأوروبيين كانوا ينظرون إلى البشر من خلال القيمة النفعية لهم. فالنافع المنتج والقادر على البقاء والتكيف يبقى، أما العناصر الضارة والتي تشكل عبئاً على الاقتصاد أو يمكن أن تشكل عبئاً عرقياً يمكن أن يجعل نقاوة العرق الآري أمر صعباً فتم التخلص منهم وبطريقة لا إنسانية.

ويسرد المؤلف قصصاً تشيب من هولها الولدان. فالنازيون كانوا لا يرون أية غضاضة في الفتك بالجنود الجرحى خشية أن يتكلفهم عمليات النقل والمعالجة والمال والوقت. كما أن قتل العجائز والمعوقين وتعقيم المرضى وغير القادرين على الإنجاب دون مشكلات كانت ممارسة يومية مقننة. لقد توصل هؤلاء ومن خلال النظرة الفلسفية العلمانية التي تقول بأن قيمة الإنسان في الإنتاج، وأن العنصر غير المفيد يجب التخلص منه إلى إشاعة جو من الرعب بين بني البشر بطريقة غير مسبوقة. وحتى أثناء الحرب العالمية الثانية لم يتورع الحلفاء –الذين كانوا يقاتلون النازية– عن اتخاذ نفس الأساليب في الإبادة الجماعية كما حصل في درسدن الألمانية حيث قتل مائتا ألف شخص أو في اليابان عندما ألقيت القنابل الذرية لإخضاع اليابانيين مع أن الوضع كان يشير إلى قرب انتهاء الحرب. واستمر الحال حتى بعد الحرب وأثناء محاكمات النازيين الذين قتل منهم الآلاف.

هذه النزعة في الإبادة استمرت أيضاً مع الصهاينة الذين حلت أوروبا مشكلتهم بتهجيرهم إلى فلسطين لخلق الدولة الصهيونية. فالصهاينة كانوا يُمعنون في عمليات القتل والإبادة ضد الفلسطينيين بطريقة منهجية ومنظمة تمكّنُهم من إقامة دولة بلا أعراق أخرى، أي دولة خاصة باليهود، وهذه لا تختلف كثيراً عن النازية التي أرادت ألمانيا بلا يهود.

لم كل هذا؟؟

يجيب المؤلف بقوله إن النزعة هذه إنما تتلخص في نظرة هؤلاء إلى الإنسان. فالإنسان مادة سلعية توظف للخدمة. وهنا بما أن القوي هو الموظِّف فإن الآخرين سيقومون على خدمته وعندما ينتهي الدور لا بد من التخلص منهم لعدم الاستفادة منهم لاحقاً.

هذه النظرة غير الإنسانية لم تأت من فراغ بل لأن هذا الإنسان نتاج هذه المادية الملحدة التي ترفض المرجعية الإلهية والقيم الربانية ولا ترى في القيم سوى الجانب النفعي.

إن أهمية مثل هذه الدراسة التحليلية العميقة أنها تنبه القارئ إلى إشكالات فلسفية وأخلاقية وإنسانية عميقة تواجهها الفلسفة المادية المعاصرة. مثل هذه الإشكالات هي إطار لفهم كثير من الممارسات التي تتم في العالم اليوم وتمثل وسيلة لفهم هذه الممارسات. ومن الأمثلة على ذلك أن الغرب يبشر بالنظام الديمقراطي الذي لا يملك أي مرجعية سوى عدد الأصوات المؤيدة المعارضة فكما فصل العلم عن القيمة فصلت الإجراءات الديمقراطية أيضاً عن القيمة، ولذلك فالديمقراطية الغربية —في رأي المؤلف– "معمقة من الميتافيزيقا والكليات والمطلقات والثوابت" وأصبحت الديمقراطية "مرجعية ذاتها، ولا يمكن محاكمتها من خلال مرجعية متجاوزة لها." فعندما تضع حكومة الولايات المتحدة ألوف المواطنين الأمريكيين من أصل ياباني في معسكرات اعتقال إبان الحرب العالمية الثانية، تم ذلك بطريقة ديمقراطية تمثل في موافقة الأغلبية. كل القرارات التي اتخذتها الحكومات منذ عمليات الإبادة النازية وحتى التوجهات الإباحية والعمليات العسكرية العدوانية تتم باعتبارها تعبيراً عن إرادة الشعب وأصوات أغلبية الناخبين فإلى متى نستمر في قبول مثل هذه القرارات؟!